حياة فرانز فانون ونضاله مع الثورة الجزائرية (1925-1961م)

إكرام بن عيسى
طالبة دكتوراه قسم التاريخ جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان

الملخص:

تهدف هذه الدراسة الى إبراز مراحل حياة فرانز فانون (1925-1961م)، من خلال تكوينه الإيديولوجي ، ومساهمة ذلك في تبلور فكرة مناهضته للاستعمار الفرنسي، خاصة بعد الظروف السياسية التي جعلته يعمل كطبيب للأمراض العقلية بمستشفى البليدة بالجزائر، وبملاحظاته بين طبيعة الاستعمار الفرنسي في المارتنيك، وطبيعته في الجزائر تبين له الفرق واضحا في أن سياسة فرنسا في الجزائر زجرية من خلال معالجته النفسية للمرضى من جراء التعذيب .

كان من نتائج هذه الأحداث تبنيه للقضية الجزائرية ، فآمن بحرية الشعب الجزائري، وناضل الى جانب جبهة التحرير الوطني من خلال عمله كمحرر في جريدة المجاهد ، ويبرز الدور الهام له في تدويل القضية الجزائرية في المؤتمرات الدولية من خلال تعيينه كممثل للحكومة المؤقتة بأكرا.

الكلمات المفتاحية : فرانز فانون ، تمييز عنصري ، الثورة الجزائرية ، الاستعمار ، العنف .

Summary:

This study aims at highlighting the stages of Frantz Fanon's life through configured theoretical and ideological contribution in the crystallization of the idea acted against French colonialism, especially after the political circumstances that enabled him to work as a doctor psychiatric at Blida hospital in Algeria. Through his observation of the nature of French colonialism in Martinique and nature in Algeria, he found out the clear difference in the France's policy in Algeria that was a restraining order through the psychological treatment of the patients as a result of torture. The results of these events is that Franz believed in the Algerian issue and believed in the freedom of the Algerian people and fought alongside with the National Liberation Front through his work as an editor at the newspaper El Moudjahid. His role was clear in his efforts to internationalize the Algerian issue at international conferences through his early appointment as a representative of the interim government.

Keys words: Frantz Fanon, Racism, Algerian Revolution,colonization ,violans .

مقدمة

تعتبر الثورة الجزائرية أمّ ثورات القرن العشرين ،لأنّها عملت على احترام قوانين حقوق الانسان على شعب وأمة ، وتحقيق القيم الإنسانية، والأبعد من ذلك أنها ساهمت في التنسيق والعمل المشترك في الجزائر وباقي البلدان المستعمرة من العالم .

فالثورة الجزائرية بحجم التضحيات وما جابهته من تحديات وما نتج عنها من تغيرات احتفظت بمكانتها ضمن حركات التحرر العالمية ، ولا تكمن عظمة هذه الثورة في دور قادتها وانتصاراتها السياسية والعسكرية فقط بل هناك جانب آخر في نجاحها تمثل في دعم الأجانب للجزائريين في كفاحهم ، وهم يمثلون أحرار العالم ممن دافعوا عن قضية الثورة ضمن منطق أخلاقي وعدل انساني أمام الاستبداد الذي تميز به الاحتلال الفرنسي، دافعوا عنها وانضموا الى صفوفها وذلك بصرف النظر عن أصولهم الإثنية أو انتماءاتهم الدينية ، تمثل بعض هؤلاء المساندين في فئة المثقفين الذين آمنوا بفلسفتهم والتزموا بمبادئهم ودافعوا عن القضية الجزائرية والمساندة المطلقة لشعب غير شعبهم.

هي شخصية من المثقفين اليساريين ، التي كان لها رأي وموقف تجاه الثورة الجزائرية ، لم تكتفي بالمساندة والسكوت والتحفظ بالمبادئ بل أعلنت عن الحقيقة المتمثلة في العداوة العنصرية ضد حرية أي انسان خاصة حرية الشعب الجزائري ، هذه الشخصية تمثلت في فرانز فانون، وعليه تطرح بعض التساؤلات عن هذه الشخصية والمتمثلة بما يلي: هل كان الموقف الايجابي لفانون من الثورة الجزائرية ينبع من مبادئه وأفكاره الشخصية كونه مرّ بتجربة الاستعمار الفرنسي وتعرضه الى التمييز العنصري، أم كان ذلك نتيجة لقناعته بالمسؤولية الاجتماعية تجاه المجتمع؟ وكيف كان يرى مشكلة الاستعمار من المنظور النفسي بصفته طبيب للأمراض العقلية ؟

التكوين النظري والإيديولوجي لفرانز فانون:

مولده وتعليمه:

ينتمي فانون الى أصول افريقية[1] ،فقد ولد بفور دي فرانس، عاصمة جزيرة المارتنيك[2] سنة 1925 وفي هذا الصدد يقول محمد الميلي: "التقيت فانون وكانت أول مرة شاهدته فيها، تعرفنا على بعض، وبعد يومين من اللقاء كانت الطائرة التي تقلهما إلى روما في الطريق إلى المغرب، فيقول:" ذهبنا فورا إلى الفندق ولم أملك نفسي عندما كنت أتأهب لكتابة بطاقة الفندق أن ألقي نظرة على جواز فانون فوجدت أنه من مواليد 1925"[3].

وفي تقديم لأليس شركي[4] (Alice Cherki) في كتاب معذبو الأرض لفرانز فانون تقول: «نشأ وسط عائلة برجوازية صغيرة ، من الطبقة البرجوازية المتوسطة في جزيرة المارتنيك، عاش منذ طفولته الحرمان والذلّ الذي لحق بالشعوب المضطهدة ، والتمييز العنصري».

في عام 1936كان يبلغ من العمر إحدى عشر سنة حين أدخله والده إلى مدرسة خاصة بالأطفال السّود في المارتينيك ، وفي تعليمه الثانوي درس فانون في ثانوية سكولشر الفرنسية تعلم فيها اللغة الفرنسية الكلاسيكية أين تأثر بشخصيات سياسية، وكان فانون كما يقدمه دافيد ماسي (David Macey) محبّا للمعرفة و منفتحا على الآخرين.[5]

تطوعه ضمن قوات الحلفاء:

عندما أنهى فانون دراسته الابتدائية و انتقل الى المرحلة الثانوية [6] كانت الحرب العالمية الثانية قد اندلعت أراد فانون و هو في سن الثامنة عشر أن ينضم الى رفاقه ليقاتل إلى جانب الحلفاء[7]، هذا بعد اكتشافه لحقيقة الزنوجة، فقد كانت هذه المرحلة بداية عهد جديد له، ونظرا لكونه كان ميّالا إلى العمل لم يكتف باتخاذه موقف نظري عاطفي لتأكيد زنوجته بل فكّر في وسيلة للخروج من المارتينيك ليلتحق بقوات الحلفاء مثل الكثير من المارتينكيين[8]، وذلك من أجل القتال مع قوات فرنسا الحرة إلى جانب الأمريكيين و الإنجليز ضد ألمانيا النازية[9]،بعد سقوط باريس عام 1941.[10]

وفي الحرب العالمية الثانية ، كان النزاع قائما بين الجنرال ديغول[11] والمارشال بيتان، جرى نقاش حاد بين التلاميذ الملونين، فكان منهم من يرى أنه غير معني بهذه الحرب التي تهمّ البيض فقط لكنّ فانون كان له رأي آخر حسب ما سجله بعض من رفاقه ،فقد رد على المقولة قائلا: " كلما تعرضت كرامة و حرية الإنسان للخطر نحن معنيون بها كلّنا بيضا و سودا وصفرا ،كلما كانت الحرية و الكرامة مهددة في أي مكان فأنا سأدافع عنها دفاعا لا رجعة فيه [12] .

وفعلا فقد التحق فانون بالقوات الفرنسية الحرة بجزيرة الدومنيك المجاورة بتاريخ 13 جويلية 1943،تجند فانون في الجيش الفرنسي و باشر مهمّته الجديدة و انضم يوم 12 مارس 1944بعد إرجاعه إلى وطنه إلى الفوج الأنتيلي رقم خمسة الذي تم تكوينه لتحرير فرنسا من النازية[13].

التحق هذا الفوج بمدينة الرباط (المغرب) يوم 30 مارس من نفس السنة ، ثم انتقل إلى مكناس وشرشال وبجاية وقبل الإنزال بتولون في 29 جوان 1944أصيب فانون بجروح خلال عبور نهر الراين[14] .

في 15 نوفمبر 1944تلقى أثر ذلك الحادث تكريما في مدينة روون[15] وفي مناسبة لتحرير فرنسا تحصل على وسام لشجاعته وقّعه العقيد راوول صالان[16] وعاد فانون إلى الماتينيك يوم 12 سبتمبر 1945أين تم إنهاء مدة تجنيده بتاريخ 12جانفي 1946 [17].

لقد حطمت مشاركة فانون إلى جانب قوات الحلفاء أوهامه فيما يخص الوطن الأم- فرنسا- و أظهرت رسالة وجهها فانون إلى والده في شهر أفريل 1945- ثم العثور عليها بعد وفاة والدته سنة 1980 - درجة وعيه المكتسب حيث كتب :" كنت مخطأ، لا شيء هنا يبرر هذا القرار المفاجئ الذي يجعلني أدافع عن مصالح المزارع عندما لا يهتم هو بها " ، فمشاركته في الحرب العالمية الثانية جعلته يفهم جيدا أن الكثير من بني جلدته لم يكن يهمهم التحرر من الاستعمار و الاستقرار ،كونهم أرادوا الاندماج مع البيض، فلا يمكن أن يحصل شعب على الاستقرار و الحرية إذا نقصته الإرادة في ذلك.[18]

المشوار التعليمي لفرانز فانون :

بعد عودة فانون إلى المارتينيك ساهم بحملة انتخابية لصالح استاذه ايمي سيزر[19] ثم أكمل فانون دراسته الثانوية [20] و نجح في البكالوريا و حصل على منحة دراسية بصفته محارب سابق[21] بالإضافة إلى الخدمات التي قدمها في الحرب العالمية الثانية، حيث انه أصبح محتكا بالثقافة الفرنسية هذا ما جعله يكمل دراسته العليا في ليون بفرنسا سنة 1947، أين قرر دراسة الطب بالجامعة ، وأكمل دراسته، في 29 نوفمبر 1951قام بتحضير أطروحته وعرضها ، ثم حضر بعدها لامتحان الداخلية لمستشفيات الطب النفسي، كان يتمحور الامتحان حول خمسة فروض تتعلق بـ: علم التشريح والفيزيولوجيا ،الإدارة الاستشفائية ، الأمراض الدهنية، والأمراض الداخلية، والنظافة الاستشفائية، وبعد نجاحه في الامتحان تحصل على شهادة طبيب نفساني[22].

يقول محمد الميلي أن فانون لم يدرس فقط الطب، بل اهتم أيضا بالدراسات الفلسفية، كان يقرأ لعدة فلاسفة وله مطالعات شملت الأنثروبولوجيا، المسرح، وشارك في عدة مناقشات فلسفية و سياسية[23].

في هذه المرحلة من حياة فانون لم ينتسب إلى أي حزب سياسي لكنه شارك في كل الحركات المعادية للاستعمار، وساهم في نشر دورية باسم 'تام تام' و هي موجهة للطلاب الوافدين من المستعمرات، وكتب مقالته الأولى سنة 1952 بعنوان :" العارض شمال إفريقي " تساءل فيها حول ظروف العامل، المنفي، المعرض للموت اليومي[24].

من خلال هذه الحركات ونتيجة لتلك التيارات الفلسفية و السياسية المختلفة في فكره راح يفكر و يبحث عن حل لمشكلته- التمييز العنصري- في الإطار الفرنسي[25]، و ذلك بخوض الكفاح إلى جانب البروليتاريا[26] الفرنسية على صعيد اليسار الفرنسي و كانت حصيلة هذا البحث هو كتابه (بشرة سوداء أقنعة بيضاء) ، الذي كان أول كتاب صدر له عن منشورات دوسوي[27]. وقد كتب فرنسيس جانسون مقدمة للكتاب كتشجيع لأفكاره الثورية[28] .

مساره المهني في الجزائر:

عمل فانون في مستشفى الأمراض العصبية بسان ألبان لمدة خمسة عشر شهرا وتعرف على الطبيب فرانسوا توسكيل[29] ، فشكلت تلك المعرفة تحولا حاسما في حياته على الصعيد الطبي النفسي، و على صعيد التزاماته اللاحقة، حيث اتضحت لدى فانون نقطة تقاطع بين الجسدي و النفسي و التاريخي[30].

عمل فانون بالمستشفى واعتنى بالمرضى من خلال دمجهم في الهيكل الاجتماعي التابع لهذه المؤسسة[31]، وفي عام 1953 حاول فانون الحصول على منصب بمستشفى إفريقي في نهاية تخرجه لكنه لم يلقى ردا على طلب الحصول عليه[32]، وأخيرا عرض عليه عمل في الجزائر وفعلا قبل فانون وجاء الى الجزائر في ديسمبر عام 1953 ،حيث عين طبيبا للأمراض العقلية في مستشفى "جوانفيل" بالبليدة الذي كان يعتبر من أهم المستشفيات الطبية الفرنسية و الأهم من نوعه على مستوى إفريقيا[33].

وجد فانون نفسه في بلد يشبه بلده، وذلك من خلال معاناة الشعب الجزائري لسياسة الاستعباد و الاضطهاد[34]، فنشط سياسيا في مدينة البليدة و بدأ في التفكير حول الوضع الاستعماري للجزائر بعد اكتشافه لحجم الأضرار النفسية التي يخلفها الاستعمار من خلال المرضى الذين كان يفحصهم في المستشفى[35].

اعتمد فانون طريقة علاجية مبتكرة بالنسبة للمؤسسة الصحية ، تتمثل في العلاج النفسي المؤسساتي وأشرف فانون في المستشفى على قسم يوجد به 165 أوروبيا و 200 جزائري[36] من خلال عمله تطبيق طريقة توسكفيل في العلاج الاجتماعي و لكنه اصطدم بصعوبات جمة لان الأساليب التي جربت مع الأوروبيين لا يمكن أن تنجح مع المرضى الجزائريين، لطبيعة البيئة الاجتماعية المختلفة[37]، ومع الوقت اكتشف فانون أن هذا الاختلاف يرجع إلى عدة عوامل و أوضاع سياسية ، كما اكتشف أيضا عوامل الجنون التي ترجع إلى الوضع السياسي للسكان المحليين أي أصناف المرض العقلي التي تسبب فيها الاستعمار[38].

تدخل فانون على هذه الجبهة المزدوجة ، فحرر المرضى من قيودهم بإنشائه ورشات للحرف التقليدية لصالح مرضاه مثل : صناعة السلال و البستنة .ونظم ورشات و ملعبا و مقهى موريسكي ،كما نشط فريقا لكرة القدم، وكون مجموعة صوتية مع المغنى الشهير عبد الرحمن عزيز[39] ، فبفضله اكتشف فانون الموسيقى الشعبية ،و قام بالعلاج النفسي عن طريق الموسيقى و أقام عدة صداقات ،و بذلك جلب انتباه بعض المناضلين الوطنيين و فاز بتعاطفهم[40].

في هذه الظروف أصبح فانون شخصية محلية مشهورة من خلال إعادة النظر في الأسس النظرية و ممارسة العلاج النفسي الاستعماري [41]،من خلال دراسته للصدمات الناتجة عن العلاقات بين المستعمر والمستعمر، حيث حلل بعمق حالات ذات دلالة و أقام علاقة ثقة مع المرضين الجزائريين وجاب منطقة متيجة بحثا عن فهم الأشكال التقليدية للعناية بحالات الاختلال العقلي[42].

كانت تجربة فرانز كطبيب نفساني في البليدة بعد دراسته لحالات المرض خصوصا بعد قيام الثورة الجزائرية مهمة فقد كشفت له انسداد الطريق الرئيسي بالنسبة لحل المشاكل المتولدة عن الاستعمار ومن هذا المنطلق بدأ فانون يتأثر بالقضية الجزائرية و قام تحليله لعدة حالات نفسية، و تيقن أن معاملة الرجل الأبيض للزنجي في الماتينيك تختلف بكثير عن معاملته للجزائري[43] .

دوره في دعم الثورة الجزائرية:

صارت مواقف فانون أكثر عدائية للاستعمار خصوصا بعدما رأى عمى الحكومة الاشتراكية بفرنسا في رغبة الشعب الجزائري بالاستقلال ،وعليه أقام فانون صلات مع حركة الصدقات الجزائرية[44] خلال هذه الفترة طلب منه الاعتناء ببعض المجاهدين الذين كانوا يعانون من أمراض عصبية و هكذا عبر التداخل بين العلاج النفسي و الالتزام السياسي انخرط فانون في نضال الشعب الجزائري من أجل استقلاله [45] .

ربما قد يستغرب الكثير منا انضمام فانون الى الثورة الجزائرية ومساندته شعبا غير شعبه و دفاعه عن قضية غير قضيته[46] فما هي الأسباب التي جعلته ينضم اليها ؟

يذكر الميلي بعض العوامل التي كانت من الأسباب في انضمامه للثورة الجزائرية يمكن تلخيصها فيما يلي:

- تأثره بالفلسفة الإنسانية الغربية التي كانت تتعاطف مع قضية أي انسان.
- اقتناعه بحقيقة الاستعمار.
- تكوينه الفكري المناهض للاستعمار [47].

كانت الثورة الجزائرية قد تجاوزت النطاق المحلي، و أصبحت موضوع تعاليق السياسة و الدبلوماسية في أنحاء العالم [48]بعد اندلاع الكفاح المسلح كان لفانون نشاطات سياسية سرية ، حيث كلفه النظام بجمع الأدوية و إرسالها إلى المقاتلين في الجبال في سنة 1956م [49].

تبقى عوامل أخرى أدرجها بعض الباحثين هي أكثر أهمية و التي تتمثل في حالة فانون النفسية و تبرز من خلال رسالة الاستقالة من منصبه-،في نهاية 1956 حيث وجه رسالة مفتوحة إلى

المفوض العام المقيم روبير لاكوست[50] يعلن فيها تقديم استقالته من وظيفته بالمستشفى[51] ، حيث أوضح في تلك الرسالة احتجاجه على السياسة التي حولت عدم المساواة و القتل إلى مبادئ قانونية ،موجهة ضد الجزائريين أصحاب الأرض الشرعيين ، هذه السياسة التي تطمس شخصيتهم و تذلهم في قلب وطنهم[52].

في الثورة التحريرية كان له أول اتصال مع العديد من مسؤولي الثورة من بينهم بن يوسف بن خدة[53] ، كما أنه أثر على بعض الشخصيات في الالتحاق بالثورة الجزائرية ، حيث يقول في هذا الصدد زهير احدادن[54]:"التحقت بالثورة ... بمناسبة محاضرة لفانون" [55].

تابع فانون نشاطه الفكري على صعيدين مختلفين ،حيث واصل في نطاق اختصاصه دراسته للحالات الهامة التي كان يعانيها المرضى ، كما كان بوصفه سياسيا و مناضلا ملتزما يعمل على توسيع ثقافته السياسية و تعميقها[56].

ثم جاء قرار طرد فانون من التراب الجزائري في مطلع سنة 1957، بعدها أمضى ثلاثة أشهر في فرنسا ، على امتداد الفصل الأول من سنة 1957، لم ينجح خلالها في تحريك موجة تعاطف حقيقية مع قضية الاستقلال الجزائري[57].

لم يكن دور فانون أكثر من دور المثقفين الذين وظفتهم الثورة في إطار إستراتيجية عامة ، لم يشاركوا في وضعها و لو بالاستشارة ،و الملاحظ في قبول القيادة لفانون في صفوفها من أجل كسب عالم الزنوج في إفريقيا و أمريكا اللاتينية ،و الولايات المتحدة الأمريكية ، رغم تأثيرهم الضعيف في السياسة العالمية ، كما أن فانون كان أداة فعالة للثورة في اكتساب المثقفين الفرنسيين إلى جانب الثورة بحكم ثقلهم في صناعة الرأي العام الفرنسي من جهة و تشكيلهم جماعة ضغط مؤثرة على صناعة قرارات الحكومة الفرنسية من جهة أخرى.[58]

نضال فانون في تونس:

أرسلت جبهة التحرير الوطني فانون إلى تونس من خلال صالح لوانشي و محمد لبجاوي[59] وقد رحبت به قيادة الجبهة في تونس، فكلفته بمهمة الإعلام[60] في جريدة المجاهد الناطقة الرسمية باسم الثورة الجزائرية ، حيث كان موقفه السياسي يتمثل في تحقيق الوحدة الإفريقية التي تستطيع العمل مع آسيا و أمريكا اللاتينية[61]، و استقلالها السياسي ،و الثقافي و الاقتصادي من أوروبا و الولايات المتحدة الأمريكية[62].

إلى جانب مهمة الإعلام التي كلف بها فانون [63] ، كانت له ملاحظات حول البث الإذاعي أثناء الثورة الجزائرية[64]، أشار فانون أن المذياع لم يعد مخزن المحتل للثقافة القمعية ، بل أصبح شيئا

ضروريا، فامتلاكه أصبح يعنى دفع الفرد ضريبته إلى الأمة يعنى انه اشترى به حق الدخول إلى الصراع الذي يخوضه الشعب[65].

توزع فانون بين الصحافة و مهنته في مستشفيات تونس [66]، إضافة إلى الإعلام ، كان يقوم بمعالجة جيش التحرير الوطني في الحدود التونسية الجزائرية[67]،وكان يكلف أيضا بمهام أخرى تجاه المقاتلين الجزائريين في الحدود المغربية الجزائرية [68] ، حيث كتب فانون عن هذه الثورة : " إن الثورة في عمقها ،و حقيقتها ، هي التي تحول الإنسان و تجدد المجتمع ، فهي متطورة جدا و هذا الأكسجين الذي يبدع الأفراد...وتلك هي الثورة الجزائرية"[69].

وهكذا جمع فانون الطب النفسي من خلال عمله في مستشفى الرازي بمنوبة في تونس حيث اشرف فيه على معالجة المرضى الجزائريين والتونسيين ، والمصابين بامراض عقلية من جراء ممارسة المستعمر للتعذيب[70]،وبين النضال السياسي من خلال ملاحظاته وتتبعه لحالات المجاهدين الجزائريين الذين كانوا يحالون بعد إصاباتهم إلى المستشفيات التونسية جاءت حصيلة هذه الفترة كتابه: العام الخامس الثورة الجزائرية[71]ومعظم مقالاته تتعلق بكتابه لأجل الثورة الافريقية[72].

نضاله على المستوى الإفريقي:

ظلت الجزائر نموذجا واضحا لحركة الاستعمار ،و شعر الأفارقة بثقل و بطش السياسة الاستعمارية وشعروا بان الثورة الجزائرية تحتاج إلى تضامن من الأفارقة و دعمهم لها لتأكيد مبدأ إفريقيا للأفارقة[73]،ويؤكد في هذا الشأن محمد فائق بقوله : " إن الثورة الجزائرية بالنسبة لهؤلاء جميعا هي ثورة على هذه الأوضاع جميعا، هي الثورة على فكرة امتداد الدولة الاستعمارية إلى ما وراء البحار"[74].

لمس فانون خلال اشتغاله بجريدة المجاهد انفتاح الثورة الجزائرية على إفريقيا حيث كتب فيها : " إن الثورة الجزائرية فتية و حركتها السياسية هي تعبير عن استقلال الحركات التحررية في العالم الثالث."[75].

حلم فانون بالتحرير و الوحدة و التخلص من عقدة الرجل الأبيض ، فوجد ما كان بالأمس خيالا دخل حيز الإمكان[76]، و قد تأكد من ذلك عندما عهدت إليه الثورة الجزائرية بمهام معنية في أقطار مختلفة من إفريقيا[77] كان أول اتصال لفانون بإفريقيا أثناء انعقاد المؤتمر الأول للشعوب الإفريقية[78] في اكرا بغانا من 8 إلى 12 ديسمبر 1958 تحت شعار : " يجب أن تكون إفريقيا حرة"[79].

حضر المؤتمر أكثر من ثلاثمائة مندوب يمثلون تسعا و تسين هيئة في إفريقيا، وكانت الجزائر حاضرة بقوة[80] حيث لقي الوفد الجزائري المؤلف من خمسة أعضاء بما فيهم فرانز فانون ، استقبالا

حافلا في أكرا يدل هذا الاستقلال الحار على الأهمية التي تعقدها الشعوب الإفريقية على النضال الجزائري منذ سنوات عدة[81].

يقول فانون في هذا الصدد :" لا حظنا في أكرا أن الوجوه الكبيرة للثورة الجزائرية : بن بلة[82]،بن مهيدي[83]، قد خلدوا أسمائهم في الملحمة الإفريقية"[84].

وقد ضم المؤتمر كل الحركات الوطنية في إفريقيا ،وسجلت القضية حضورا قويا من خلال جلساته التي درست فيها تجربة الكفاح المسلح الجزائري ،يقول فانون :" اختير أحدنا في اللجنة المديرة للمؤتمر انتخب الأعضاء الآخرون وسط التصفيق لتولي رئاسة أو نيابة مختلف اللجان"[85].

طرح الوفد الجزائري بشكل واضح أمام المؤتمرين مسألة الكفاح [86] وألقى فانون خطابا اتسم بالجدية عندما طالب الأفارقة بالوحدة ، بما أن القارة الإفريقية تعيش تحت نير الاستعمار الأجنبي[87]، ازداد اهتمام فانون بعد ذلك بإفريقيا فعينته الحكومة الجزائرية المؤقتة سفيرا متجولا لإفريقيا في نهاية 1959، و كان هذا العام عام الاستقلالات الإفريقية ، تحول فانون إلى سفير حقيقي ينتقل من غانا إلى الكامرون ،و من أنغولا إلى مالي للتحفيز من أجل الاستقلال وطرح إمكانية تنظيم وحدات تنتقل عبر الصحراء من مالي إلى الجزائر للمشاركة في القتال إلى جانب المجاهدين الجزائريين[88].

في عام 1960 تم تعيين فانون سفيرا للحكومة الجزائرية المؤقتة في غانا[89] ، حيث أتيح لفانون الاتصال من جديد مع ممثلي الحركات الإفريقية ضمن مؤتمر الشعوب الإفريقية المستقلة ،وقابل الكثير من المسؤولين السياسيين و ساهم في إعداد إستراتيجية جديدة، بفتح جبهة جنوبية ، تسمح لمجموعات جبهة التحرير الوطني بالدخول إلى التراب الوطني انطلاقا من مالي[90].

وبالفعل قررت قيادة الثورة إنشاء جبهة عسكرية سميت بالجبهة الجنوبية المالية النيجرية[91] و تكلف فانون بإجراء اتصالات ميدانية في مالي و النيجر و من جهة السلطات النيجرية قدمت موافقتها لفتح مراكز للثورة الجزائرية شمال البلاد[92].

كان فانون أحسن دبلوماسي دافع عن القضية الجزائرية و رفعها في مختلف المؤتمرات و الندوات الإفريقية و جعلها بمثابة حركة تحرر نموذجية تقتدي بها الأمم و الشعوب الإفريقية التي عانت من الاستعمار[93].

وفي 30 أفريل 1959 جاء تصريح الحكومة الفرنسية أنها ستقطع علاقاتها مع أول حكومة تعترف بالحكومة المؤقتة الجزائرية [94]، و لكن هذا التهديد تجاوزته الاعترافات التي جاءت بعد 1960 من غانا، ليبيريا ، طوغو ، مالي[95] ، وهذا بفضل الدبلوماسية الجزائرية التي مثلها فانون في إفريقيا[96]والتزامه بالمشاركة الفعلية في الثورة التحريرية ،و العمل من أجل نجاحها كمثقف ثوري[97]

مواقف فرانز فانون من بعض القضايا:

الاستعمار:

تعرض فانون في عدة مقالات له للتحليل الدقيق لمفهوم الاستعمار[98]، أوضح فانون في خطاب له بأن الاستعمار هو سيطرة أجنبية واحتلال عسكري [99] وإزالته لا تكون إلا بالاعتراف للشعب المستعمر بحقه في تقرير مصيره، وبالنسبة للجزائر، فإن الاستعمار الفرنسي يشكل كل القوى التي تجعل الأرض و الإنسان يعارض وجود الأمة الجزائرية. وعليه فإن كل الفرنسيين المتواجدين في كل شبر من التراب الجزائري هم جنود فرنسيون يجب محاربتهم إلى أن يتم استرجاع السيادة الوطنية ، حيث أن فانون توقف عند مختلف مراحل التطور التي مر بها الشعب الجزائري و غاص في أعماق الثورة الجزائرية ليستلهم معانيها و يستنطق انتصاراتها[100] .

وعالج فانون هذا النوع من التفكير بقوله :" إن الاستعمار ليس جزء من التاريخ الجزائري ، بل هو حادث مؤلم و كريه ، لم يكن له مغزى سوى أنه عطّل عملية التطور المنسجم للمجتمع و الأمة الجزائرية " و يقول أيضا :" إننا لا ننتظر من الاستعمار أن ينتحر لقد عودنا على أنه يدافع عن نفسه بكل ما أوتي من قوة ...و لا يمكن للشعب المستعمر أن يشفي من التمييز العنصري، و باقي عاهاته إلا إذا قبل بالفعل اعتبار الممتلكة القديمة أمة كاملة الاستقلال...أما إثارة الروابط القديمة أو المجموعات الوهمية، فإنها مجرد كذب مفضوح و تحايل، مازال الشعب الجزائري منذ أربع سنوات يبرهن على أنها لا تستطيع مواجهة الحقيقة العارية و الإرادة القوية"[101] .

إن محو الاستعمار[102] إنما هو حدث عنيف دائما لأن ذلك يبدّل الكون تبديلا تاما لذلك لا يمكن أن يكون ثمرة تفاهم ودّي ، وعليه فإن فانون يرى أن الحكم الاستعماري باعتباره شاملا وميّالا إلى تبسيط الأمور فيفلح بسرعة ومهارة في تمزيق الحياة الثقافية للشعب المغلوب. فيقول:"إن تغيير المستعمر للعالم الاستعماري ليس معركة عقلية بين وجهتي نظر ليس خطابا في المساواة بين البشر ، و إنما هو تأكيد عنيف للأصالة ."[103]

العنف :

لقد تسبب التعذيب المسلط على الجزائريين في تحول مواقف المثقفين الفرنسيين إذ حتم عليهم التوقف لدراسة التاريخ السياسي الفرنسي و كذلك دور فرنسا في تغيير منظومة القيم لدى المجتمع[104].

قدم فانون الدوافع الفلسفية و النفسية للتعذيب و استعمال العنف و بيّن الآثار المترتبة على الحقيقة الأصلية للاستعمار. وهو يعتبر أول اختصاصي يعالج ضحايا التعذيب و يعالج معذبيه في نفس الوقت ، فقد عايش الحالة التي كان يعاني منها الجزائريون ، وموقفه سيكون نابعا عن تجربة في

الميدان مباشرة .يقول فانون:" إن الاستعمار في حد ذاته هو السبب في عدد من الأمراض العقلية التي نشأت في ظل الاستعمار كنوع من التكييف مع وضع شاد غريب "[105].

يعتبر فانون أن التعذيب كحتمية من العنف ، فقد حوّل كتابه " معذبو الأرض " مفهوم القوة التي اعتبرها الجيش و المعمرون ضرورية لإخضاع طبيعة الجزائريين وحولها إلى منبع للتحرر النفسي و الجسدي عندما تستعمل ضد السيطرة الاستعمارية[106].

كان لفانون تصور أخر هو أمر هام و يتعلق بقضية حساسة في الثورة الجزائرية تعرف باسم"الحركة" "حركي" حيث أنه لم يفهم سلوك بعض المحاربين الذين وقعوا أسرى في أيدي الاستعمار ، وهم يعتبرون أنفسهم أحرار بالنسبة للمستعمرين ، كيف تم تنشيطهم و التحاقهم بالجيش الفرنسي حتى صاروا يطاردون رفاقهم القدامى ويلقون عليهم القبض و يعذبونهم[107] . فيطرح فانون خطابات مضللة ينسب طابعها المتناقض في إطار عملية إنهاء الاستعمار تمثلت : في طلب الكفاح العنيف تنويرا وتعمقا سياسيا ، يعارض الكفاح العنيف النضال السياسي ، و الأول فقط هو القادر على الوصول إلى إنهاء جذري للاستعمار[108].

ويشير في مقالات جريدة المجاهد صدى دعوة فانون إلى الشعوب الإفريقية أن تحمل السلاح :"لهذا السبب على الشعوب الإفريقية أن تتحرك نحو الأمام و أن تعتقد الضغوط و أن تطلب منذ اللحظة استقلالها، يجب على الجماهير الإفريقية و النخب الإفريقية أن تأخذ منذ الآن الترتيبات اللازمة للانتقال للحركة مباشرة ، حمل السلاح ،نشر الذعر في صفوف المستعمرين"[109]

المرأة:

حاول الاسستعمار الفرنسي القضاء على الشخصية المعنوية للمجتمع وذلك بضربه في كيانه خصوصا وانه اكتشف ان المراة هي العنصر الفعال وذلك بحفاظها على الهوية الجزائرية، فقد تفطن فانون للمحاولات الرامية إلى هضم المرأة الجزائرية ودمجها في المجتمع الأوربي،[110] فالعنصر المهم من العناصر الملبسية هو "الحايك"،ذلك أن الاستعماريين المكلفين بتحطيم أصالة الشعب، وتفتيت صور الوجود المحرك للشخصية الجزائرية يوجهون أقصى جهودهم على لبس "الحايك" الذي صار ينظر إليه خلال معركة التحرير كرمز لشخصية المرأة الجزائرية و كيانها، و كرمز الشرف العربي ، لا ينبغي أن يمسه المستعمر[111].

وأدركت فرنسا أن المرأة هي عماد الثورة و الثقافة معا، وإن فقدت شخصيتها و خضوعها للتصرفات الأجنبية من شأنه أن يقلل الحماس الثوري و يحطم الحضارة الجزائرية الأصلية.حيث

كان الأمل ينبعث لدى الاستعمار الفرنسي مع كل امرأة جزائرية جديدة تتخلص من الحجاب "الحايك" فكأنما كل جسد يتحرر من قيد "الحايك" التقليدي يعبر أن الجزائر تبدأ في فقد شخصيتها المتعصبة[112] .

فيقول فانون في هذا الصدد :" إن النساء الخاضعات للتجربة يمضين وسط المجتمع الأوروبي الجزائري بوجوههن العارية ، و أجسامهن المتحررة كعملة مالية صعبة ...فكان الأوربيون المتحمسون و المنتصرون بفعل هذا النوع من التعديل الذي يغمرهم يبرزون ظواهر نفسية أشبه ما تكون بالظواهر النفسية التي تقترن بعملية التحول الديني.."[113] .

وعن دور المرأة في الثورة الجزائرية يضيف :"...ينبغي دائما أن يستحضر في أذهاننا هذه الحقيقية وهي أن المرأة الجزائرية التي شاركت في الثورة و التزمت بها قد تعلمت بالغريزة دورها كإمارة وحيدة في الطريق في رسالتها الثورية ، فالمرأة الجزائرية ليست بالشرطي السرّي و إنما اعتادت أن تخرج وفي حقيبة يدها ثلاث قنابل أو تقرير عن نشاط...لم تعرف ذلك الإحساس بأنها تلعب دورا مقروءا مئات المرات في الروايات ، أو مشاهد في السينما ، و لم يكن لديها ذلك الشعور بتقليد الغير الذي نشعر به عند المرأة الغربية "[114] .

وفاة فانون:

أصيب فانون بسرطان في الدم سنة 1961 ، فقامت جبهة التحرير بإرساله إلى الإتحاد السوفيتي لاستشارة الأخصائيين لكنه عاد إلى تونس دون بارقة أمل في الشفاء، وفي الخامسة و الثلاثين من عمره عرف بأنه سيموت حيث قال :"فهمت أنني لن أعيش أكثر من ثلاث أو أربع سنوات ، فكان يجب علي أن أسرع في أن أقول و أفعل الحد الأقصى"[115] .

كان كتابه "معذبو الأرض" آخر أعماله ، أملاه على زوجته على عجلة بسبب المرض،[116] بعد ذلك أرسلته جبهة التحرير الوطني في الولايات المتحدة الأمريكية[117] ، حيث كان يأمل أن يستفيد من نتائج أحدث الأبحاث العلمية على مرضه، بعدها لحقت به زوجته وابنه[118] ، إلى أن توفي فانون يوم 6 ديسمبر 1961 في واشنطن عن عمر يناهز ست و ثلاثون عاما[119] .

تمنى فانون قبل موته بأن يدفن في الجزائر مع الشهداء الذين كان يعتبرهم إخوته في الكفاح، وفي 11 ديسمبر 1962 تم نقل جسده من واشنطن إلى مطار "العونية" بتونس العاصمة أين كرمه الوفد الخارجي للحكومة الجزائرية المؤقتة[120] ودفن فانون يوم 12 ديسمبر في غابة سيفانا بالقرب من قرية "عين السلطان" التي تنتمي إلى التراب التونسي،بعد ترسيم الحدود مع تونس في سنة 1965 تم نقل رفات فانون إلى الجزائر مرة أخرى و دفن بمقبرة "عين الكرمة" بولاية الطارف[121] ، وقد أعطت له ولزوجته الجنسية الجزائرية، واعتبرته الجزائر احد رموز الثورة الجزائرية ومثقفيها[122] .

خلاصة:

امتلك الطبيب والفيلسوف والمناضل فرانز فانون مكانته الإنسانية والثقافية كونه مناضلا عرف بمناهضته للإمبريالية والاستعمار، إذ وقع فانون في اشتباك فكري وثقافي وإنساني مع كل ما من شانه أن يعادي الحرية والكرامة الإنسانية، ويصادر قيم العدالة والمساواة، فجاء مقاوما لكل من الظلم والاضطهاد والهيمنة، وفي سبيل ذلك امتلك عددا من المستويات للنضال ضد الاضطهاد القائم انطلاقا من لون البشرة؛ مرورا بمعالجة الآثار النفسية للاستعمار على الشخصية الخاضعة للهيمنة، وإلى نقد النخب الحاكمة وهكذا انطلق مشروعه القائم على تفكيك التمايزات التي أحدثها الرجل الأبيض-المستعمر- على الشعوب المستعمَرة، فجاء خطابه متشعبا وعنيفا وصارخا بالفعل والعمل الميداني بانضمامه لحركة التحرير في الجزائر، وعمل طبيبا وناطقا وممثلا باسمها في عدد من المحافل الدولية.

الهوامش:

1- أبو القاسم،سعد الله ، تاريخ الجزائر الثّقافي مرحلة الثورة (1956-1962) ،ط1،دار الغرب الإسلامي، بيروت،2007 ص599 .

2- تقع جزر الأنتيل في البحر الكاريبي، وهي عبارة عن جزر تقع غالبيتها في الشمال الشرقي من فنزويلا، أما عن المجموعات العرقية التي تقطن فيها فهي من الزنوج و الأسبان ، الهولنديون، والصينيون ، و عاصمة جزر الانتيل هي ويلمساد ينظر،امنة أبو حجر، الموسوعة الجغرافية لبلدان العالم، ط1، دار أسامة، الأردن،2001، ص ص 123- 124، فرانز فانون، لأجل الثورة الإفريقية ، ترجمة : ماري وديالا طوق، ط1، دار الفارابي، بيروت 2007، ص ص120-121.

3- تقع جزر الماريتنيك في جزر الأنتيل الصغرى إلى الشمال الشرقي من فنزويلا و يتبعها جزر صغيرة، هي مستعمرة فرنسية، عاصمتها فوردي فرانس، واللغة الرسمية السائدة فيها هي الفرنسية، احتلت من قبل فرنسا عام 1635 ، ينظر ، آمنة أبو حجر، مرجع سابق، ص 464.

4- محمد الميلي، فرانز فانون و الثورة الجزائرية ، دار الغرب الإسلامي، الجزائر،2010 ، ص10.

5- طبيبة نفسانية، ناضلت من أجل القضية الوطنية الجزائرية، ولدت في الجزائر العاصمة سنة 1936، شغلت منصب طبيبة داخلية في مصلحة الطب النفسي بمستشفى جوانفيل بالبليدة، حيث كانت عضوة في فريق فرانز فانون.ينظر، فرانز، فانون، معذبو الأرض ، ترجمة : سامي الدروبي و جمال الأتاسي ، منشورات ANEP، الجزائر ،2004 ، ص 10.

6- William, Streinckhan, Frantz Fanon the life and work, Afro-American stations publication series, 1979, p71.

7- نوراة حسين ، المثقفون الجزائريون بين الأسطورة والتحول العسير، سنوات من الجمر لسنوات من النار من بداية القرن العشرين لغاية الاستقلال، موفم للنشر، الجزائر، 2013 ،ص 228.

8-David, Macey ,Frantz Fanon, une vieTraduit de l'anglais par Christophe Jaque et Marc Saint-Upéry, édition Chiheb, Alger 2012, p 215.

9- محمد الميلي، مصدر سابق، ص12.

10- رابح لونيسي ، فرانز فانون و البحث عن الخلاص النفسي في الثورة الجزائرية، مجلة عصور، العدد الأول جامعة وهران ، جوان 2002،ص 18.

11- ولد سنة 1890م، في مدينة ليل الفرنسية ، وتخرج من المدرسة الحربية سان سير، شارك ديغول في الحرب العالمية الأولى و الثانية ، و في سنة 1958 استنجد به الفرنسيون لانقاد الوضع في فرنسا أعطى لفرنسا دستور أسس به الجمهورية الخامسة، استقال سنة 1969، وتوفي في 1970، ينظر ، عبد الوهاب، بن خليف، تاريخ الحركة الوطنية من الاحتلال إلى الاستقلال ، ط1 ، دار طليطة ، الجزائر ،2009، ص 216 .

12- يحي بن الوليد، خطاب ما بعد الاستعمار، جريدة الكلمة، العدد 16، أفريل ، 2008 ،ص 14.

13-Rachid,Khettab :Frères et Compagnons, Dictionnaire biographique d'Algériens d'origines européennes et Juive et la guerre de libérations (1954-1962),Dar Khettab, Algérie, 2012,P 107.

14 -نهر في أوروبا يمر عبر سويسرا، فرنسا، ألمانيا، هولندا ، يعتبر أحد أهم و أطول أنهار القارة الأوروبية، طوله 1230كلم، منبعه الرئيسي من سويسرا ينظر : آمنة، أبو حجر، مرجع سابق، ص 132.

15- إقليم فرنسي، يقع في المنطقة الشرقية الوسطى من منطقة رون- الألب في فرنسا، يشمل إقليم الرون على الأنهار التالية: نهر رون و نهر ساون، ينظر ، آمنة، أبو حجر: مرجع سابق، ص 236.

16- ولد بروك كورب سنة 1899، جنرال و قائد بالجزائر في الفترة ما بين 1957الى 1958 ، ترقى منصب ضابط في الجزائر يوم 15 نوفمبر 1956أنشأ منظمة الجيش السري(L'OAS) كان قائدا عليها من (1961-1962) له عدة كتابات : رسائل من السجن، ومذكرات : نهاية إمبراطورية بأجزائها. توفي سنة 1984.ينظر:

Yves, Courrière, La guerre d'Algérie ,V, Dictionnaire et document, édition, SGED Paris,2001,pp2189-2190.

17-Rachid Khettab ,Frères et compagnons ,op, cit, p 108.

18-Alistide ,R.Zolberg ,Frantz Fanon, édition Encounter, 27Nouvember 1966,p 56 .

19- شاعر و رجل سياسي، من دعاة الزنوجة، التقي في باريس (بليوبولد سنغور)، و أسس بالتعاون معه و مع (بيون غونتران داماس) مجلة الطالب الأسود سنة 1934، حيث استعمل لأول مرة كلمة الزنوجة التي أصبحت شهيرة. من أعماله أولا(Les Armes Miraculeuses) سنة 1946و ثانيا (Ferrement)سنة 1960، وديوان شعري يتغنى بالروح السوداء، وفي سنة 1939 عاد إلى الأنتيل و نشر (Le Cahier d'un retour au pays natal) الذي يعد صيحة ثائرة انضم إليها عدد من المثقفين السود، انتخب ايمي سيزر كنائب شيوعي لبلدية فور دي فرانس قبل أن يؤسس حزبه: الحزب التقدمي الماريتنيكي، ينظر : نوارة، حسين ، المثقفون الجزائريون بين الأسطورة والتحول العسير، سنوات من الجمر لسنوات من النار من بداية القرن العشرين لغاية الاستقلال، موفم للنشر، الجزائر، 2013 مرجع سابق، ص 229.

20- نوارة حسين، مرجع سابق، ص 229.

21-Rachid Khettab ,Frères et compagnons, op ,cit,p108.

22-David Macey, op, cit,p215

23- محمد الميلي، مصدر سابق، ص 22.

24-نفسه، ص 22.

25-David, Macey, op, cit,p215

26- تاريخيا كان البروليتاري مواطن من الطبقة السادسة و الأخيرة في المجتمع الروماني، وبهذه الصفة كان معفيا عن تسديد الضرائب و كان ينظر إليه على انه مفيد من ناحية واحدة و هي إنجاب الأطفال، الذين سيصبحون عبيدا أو جندا في المجتمع ، ويتضح أن البرولتياريا هي الطبقة التي تقف في مواجهة البرجوازية التي تملك رأس المال و تكون في صراع أخلاقي معها، ينظر، عبد الوهاب الكيالي، الموسوعة السياسة،ج 1، دار الهدى ، بيروت، د.ت، ص 533، و عبد الهادي الجوهري، معجم الاجتماع، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية ،1998 ، ص 39.

27-Rachid, Khettab , Les Amies des frères, Dictionnaire biographique des soutiens internationaux a la lutte de libération national algérienne, Dar Khettab, Algérie, 2012, p108.

28- فرنسيس جانسون ، ولد سنة 1922، انطلق في مساره الفكري و التاريخي و السياسي قبل اندلاع حرب الجزائر ثم واصله بعد نهايتها، هرب سنة 1943من فرنسا ليدخل في كنف العمل السري لأول مرة، انخرط في صفوف المقاومة السرية الفرنسية بشمال إفريقيا ، جاء إلى الجزائر للإقامة فيها من

سبتمبر 1948 إلى ماي 1949 من أعماله: الجزائر الخارجة عن القانون، حربنا، أسس شبكة الدعم والمساندة تسمى بحملة الحقائب التي كانت تضمن التنقل و الإيواء و تهريب الأموال و المناضلين و تزويد جوازات السفر و بطاقات الهوية للمناضلين الجزائريين، توفي عام 2009، ينظر، بزيان سعدي، دليل الباحثين والمؤرخين الجزائريين وغيرهم حول نوفمبر في مراة الكتاب والمؤرخين الفرنسيين من خلال عشرات الكتب التي أصدروها مدّة أربعين سنة ، دار هومة، الجزائر، 2009، ص110سنة.وأيضا:

Rachid ,Khettab , Les Amis des Frères: op ,cit, p p 179-180

29- امتهن وظيفة طبيب نفساني ، كرس طاقته لإدانة و محاربة الميكانيزمات اللاإنسانية، التي ترهن و تحتقر وتنفي حقوق المريض النفساني، كان رئيس مصلحة الأمراض العصبية مع بول بارفات و لوسيان بونافي في سان ألبان بلوزير. ينظر، نوارة، حسين، مرجع سابق ،ص 299، و أيضا:

Mireille Fanon, Frantz Fanon par les textes de l'époque, préface d'Achille Mbembe, Ouvrage coordonné par la Fondation Frantz Fanon et l'association sortir du colonialisme, édition Baghdadi, Paris, 2012, p103.

30- فرانز فانون، معذبو الأرض، مصدر سابق، ص 11.

31- نوارة حسين، مرجع سابق، ص 230.

32- عبد الحميد حيفري ، فرانز فانون بعض ملامح الشخصية الجزائرية في كتاباته ، دار الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر،2007،ص 19.

33- Mireille Fanon , op, cit, p p 120 -103 .

34- Senoussi,Seddar, ondes de choc les transmission durant la guerre de libérations ,Editions ANPE , Algérie ,2002, p12.

35- عبد الحميد حيفري ، مرجع سابق،ص 19.

36- Rachid ,Khettab , Frères et compagnons , op, cit , p 109.

37- ipid ,p109 .

38- محمد الميلي، مصدر سابق،ص ص 23-24.

39- كان يشتغل ممرضا في مصلحة فانون إضافة إلى كونه كان فنانا ، ينظر، نوارة حسين ، مرجع سابق ،ص 230 .

40- نفسه ،ص 230.

41- Rachid ,Khettab , op, cit , p108

42- نوارة حسين ، مرجع سابق ، ص 230.

43- محمد الميلي ، مصدر سابق ،ص 24.

44- هي جمعية إنسانية تهدف لتقديم الدعم المادي لعائلات المعتقلين السياسيين ، ينظر، فرانز فانون ، معذبو الأرض، مصدر سابق، ص 12.

45- محمد الميلي ، مصدر سابق ،ص 12.

46- نفسه ، ص 27. ورابح لونيسي ، مرجع سابق ،ص 19.

47- محمد الميلي، مصدر سابق ،ص 27.

48- نفسه ،ص 27.

49- فرانز فانون، بشرة سوداء أقنعة بيضاء ، ط1، منشورات ANEP، الجزائر ، 2004 ،ص 121.

50-ولد عام 1898 بأزيرات في دوردوني ، أبوه كان مفتش السكك الحديدية ، عمل لاكوست وزيرا للصناعة إبان حكومة ديغول ثم عهد إليه حكومة الجزائر وأصبح وزيرا مقيما عاما و منذ ذلك الحين ركز على إدماج الجزائر و جعلها جزءا لا يتجزأ من فرنسا ، ينظر:

Yves, Courrière :La Guerre d'Algérie ,III ,L'heure des colonels, Edition SGED, Paris, septembre, 2000,P915.

51- فرانز فانون ،لأجل الثورة الإفريقية، ، ترجمة، طوق ماري، ط1، دار الفارابي، بيروت، 2007،ص 74.

52- فرانز فانون ، بشرة سوداء ، مصدر سابق ،ص 121.

53- من مواليد 23 فيفري 1920، بالبرواقية جنوب المدية ، انضم لحزب الشعب في فترة الحرب العالمية الثانية ، كان عضو في اللجنة المركزية التحق بجبهة التحرير سنة 1955،أصبح عضو في المجلس الوطني للثورة الجزائرية ثم لجنة التنسيق و التنفيذ ، ليصبح رئيس للحكومة المؤقتة الثالثة ، أقصى من الحياة السياسية بعد سنة 1962، توفى في 04 فيفري 2003، ينظر، نور الدين حاروش ، مواقف بن يوسف بن خدة النضالية و السياسية قراءة في تاريخ الجزائر الحديث ،ط1 دار الأمة الجزائر ، 2011،ص ص 90-97.

54- في بداية 1957 كان الطالب زهير احدادن يريد المشاركة في الثورة الجزائرية ،و كان الموعد صدفة أثناء محاضرة لفرانز فانون بمقر الكشافة الإسلامية و كان الواسطة هو الطالب رشيد عمارة مناضل في حزب الشعب ،و هكذا كانت بدايته في ثورة التحرير ، ينظر ، محمد عباس ، مثقفون في ركاب الثورة في كواليس التاريخ ، ج2، دار هومة، الجزائر ، 2012، ص 37.

55- نفسه ، ص 37.

56- محمد الميلي ، مصدر سابق ،ص 24.

57-Rachid ,Khettab , Frères et compagnons ,op, cit , p109.

58- رابح لونيسي، مرجع سابق ،ص 22.

59- المسؤولان الأوليان عن فيدرالية جبهة التحرير الوطني بفرنسا .ينظر:

Rachid ,Khettab : op, cit , p109.

60- عبد المجيد عمراني ، مرجع سابق ،ص 93.

61- Gallisat,Rine , L'Ouvre de Frantz Fanon, Maspero, Paris, 1970 , p 270 .

62- عبد المجيد عمراني ، النخبة الفرنسية المثقفة والثورة الجزائرية 1954- 1962، دار الشهاب، الجزائر، د.ت ،ص 93.

63- المجاهد (1957-1965م) : جريدة خبرية إعلامية سياسية كانت تدافع عن قضايا الثورة و ترد على الإعلام الفرنسي ، ثم أخذت الجريدة تعالج مسائل الدين و الأدب و التاريخ .لمزيد من التفصيل عن الجريدة ينظر: أبو القاسم سعد الله ، مرجع سابق ،ص 193.

64- عبد المجيد عمراني ، مرجع سابق ، ص 93.

65- روبيرت بوكميلر،حرب الكلمات الجزائرية ، البث الإذاعي أثناء الثورة(1954-1962)،تر، أبو القاسم سعد الله، مجلة الذاكرة، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، ماري2007،ص ص 10-11.

66- محمد الميلي ، مصدر سابق ،ص 24.

67- الطيب بن نادر ، الجزائر حضارة ،تاريخ الحضارات المتعاقبة للجزائر ، دار الهدى ، الجزائر، 2008،ص 207.

68-عبد المجيد عمراني ، مرجع سابق ،ص ص 93-94.

69- الطيب بن نادر، مرجع سابق ،ص 217.

70- دافيد كوث ، فرانز فانون من أعلام العصر الحديث، ترجمة، الكياني عدنان، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، بيروت، 1971،ص 74.

71- محمد، الميلي ، مصدر سابق ،ص 26.

72- نفسه ،ص 26.

73- عبد الله مقلاتي ، دحمان تواتي ، البعد الإفريقي للثورة الجزائرية و دور الجزائر في تحرير إفريقيا ، ط1، دار الشروق ، الجزائر ، 2009،ص 15.

74- محمد فائق ، عبد الناصر و الثورة الإفريقية ،ط4، دار المستقبل العربي ، القاهرة ، 2002، ص 42.

75- عبد المجيد عمراني ، مرجع سابق ،ص 94.

76- محمد الميلي، مصدر سابق ،ص 27.

77- حضرت دولة غينيا المؤتمر و كانت قد حصلت على استقلالها الذي نتج عن الصراع الفرنسي الجزائري ، ينظر، فرانز فانون ، لأجل الثورة الإفريقية ، مصدر سابق ،ص 207.

78- شوقي الجمل ، عبد الله عبد الرزاق إبراهيم ، تاريخ إفريقيا الحديث و المعاصر ، ط 2، دار الزهراء ، السعودية ، 2002، ص 434 .

79- نفسه، ص434.

80- نفسه، ص434.

81-نفسه، ص434.

82- ولد سنة 1916في مارنيا بوهران من عائلة فلاحين ، درس بتلمسان ثم دخل الخدمة العسكرية سنة 1937.اعتقل سبع سنوات في سجن البليدة ، كان من الأعضاء في حادث اختطاف الطائرة ، أصبح رئيسا للجزائر إلى أن انقلب عليه هواري بومدين في جوان 1965.ينظر،

Yeves , courrière ,III ,L'heure des colonels, op, cit ,p2133

83- ولد في 1923 بعين مليلة بقسنطينة ، ناضل في صفوف حزب الشعب ، اعتقل بعد مجازر ماي 1945واتهم في قضية المنظمة الخاصة و حكم عليه بعشر سنوات سجن غيابيا ، عضو مؤسس للجنة الثورية للوحدة و العمل ، قائد منظمة وهران ، عين عضوا في القيادة العليا لجبهة التحرير بعد مؤتمر الصومام في 20 أوت 1956، اعتقل في 23 فيفري 1957، استشهد بن مهيدي تحت التعذيب في 3 مارس 1957.ينظر ، ناصر الدين سعيدوني، الجزائر منطلقات وأفاق، مقاربات للواقع الجزائري من خلال قضايا ومفاهيم تاريخية،ط2، عالم المعرفة،الجزائر،2008.ص326 ومحمد حربي ، الثورة الجزائرية سنوات المخاض، ترجمة، عياد نجيب، المثلوثي صالح، سلسلة صاد للطباعة والنشر، الجزائر ، 1994 ،ص ص 187-188.

84- فرانز فانون ، لأجل الثورة الإفريقية ، مصدر سابق ،ص 205.

85- نفسه ،ص 205

86-نفسه ،ص 206.

87- جريدة المجاهد ،من خطاب الدكتور فرانز فانون ، الجزء الثاني ،عدد 8،جانفي1962،ص264.

88- فرانز فانون ، معذبو الأرض ، مصدر سابق ،ص 13.

89- نفسه، ص 13.

90- محمد الميلي ، مصدر سابق ،ص 28.

91- لمزيد من التفصيل عن الجبهة الجنوبية ينظر، عبد الله مقلاتي ، محفوظ رموم ، الجبهة الجنوبية المالية النيجرية و دورها الإستراتيجي في الثورة الجزائرية ، دار السبيل الجزائر ، 2009،ص ص 15-29.

92- عبد الله مقلاتي ، دحمان تواتي، البعد الإفريقي ، مرجع سابق ،ص 87.

93- نفسه، ص 18.

94- إبراهيم مياسي، قبسات من تاريخ الجزائر ، دار هومة ، الجزائر ،2002 ، ص 197.

95- عبد المجيد عمراني ، مرجع سابق ،ص 95.

96- نفسه ،ص 95.

97- فرانز فانون ، معذبو الأرض، مصدر سابق ، ص ص 353- 358.

98- يعتبر محوا للشخصية الدولية،كما أن له أثار ضارة:(أزمات اجتماعية ، اضطرابات نفسية...الخ).ينظر،سلسلة المشاريع الوطنية، الدبلوماسية الجزائرية من 1830 إلى 1962 ، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر1954 ، الجزائر، 1998، ص76.

99- ويعرفه ايمي سيزر بقوله: "هو عملية اغتصاب، لكن لا يكفي يجب أن أقول عملية إبادة شعب بأسره". ينظر، أحمد الخطيب، الثورة الجزائرية دراسة وتاريخ، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1958، ص159.

100- العربي الزبيري، مرجع سابق، ص146.

101- جريدة الأيام الجزائرية ، أراء فرانز فانون ومضات لا تخبو، العدد214، الجزائر، الأربعاء31 ماي 2006 ، ص11.

102- ويعتبر فرانسيس جانسون التعذيب عند تعليقه بما ورد في اعترافات الجنرال بول أوساريس في كتابه: "أجهزة خاصة"بقوله : "إن مسألة التعذيب مرتبطة بالمسألة الاستعمارية".ينظر، سعدي بزيان، جرائم فرنسا في الجزائر، دار هومة، الجزائر، 2002، ص13. ومغنية لزرق ، التعذيب وانحطاط الإمبراطورية من مدينة الجزائر إلى بغداد ، دار الحكمة ، الجزائر ، 2009 ص288.

103- فرانز فانون، معذبو الأرض، مصدر سابق ، ص 96.

104- نفسه، ص96.

105- جان بول سارتر ، الاستعمار و الاستعمار الجديد و معذبو الأرض، مجلة ستواسيون، عدد5 ، دار غاليمار، باريس،1944 ، ص181.

106- نفسه، ص182.

107-عبد القادر جغلول ، أعمال عبد القادر جغلول، فرانز فانون غموض إيديولوجية العالم الثالث، ترجمة: زمام نور الدين، مجلد3، دار ذاكرة الناس، الجزائر،2013 ، ص116.

108 - Frantz Fanon, Les damnés de la terre, édition ENAG, Alger, 1994, p52.

109- فرانز فانون، معذبو الأرض، مصدر سابق ، ص 96.

110- العربي الزبيري ،مرجع سابق ، ص 94.

111- عبد الحميد حفيري، مرجع سابق ، ص 49.

112- سليمة كبير ، مرجع سابق ، ص25.

113-فرانز فانون ، معذبو الأرض ، مصدر سابق ، ص28.

114- فرانز فانون ، العام الخامس للثورة الجزائرية ، ترجمة: قرقوط ذوقان ، ط1، دار الفارابي، بيروت، 2004. ، ص53.

115- Renate ,Zahar , L'œuvre de Frantz Fanon ,Maspero, paris , 1970 ,p14.

116- محمود عثمان، مفهوم العنف في فكر فرانز فانون و علاقته بالثورة الجزائرية ، مذكرة ماجستير ، معهد الفلسفة جامعة الجزائر ، 1987- 1988 ، ص 27.

117- سليمة كبير، مرجع سابق ، ص 21.

118- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر ، مرجع سابق، ص 599.

119- Rachid Khettab , Frères et compagnons, op.cit ,p112.

120- Mostafa ,khiatri :op.cit. ,p100.

121- Rachid, Khettab, Les Amis des Frères ,op.cit. p112.

122-رابح لونيسي، مرجع سابق، ص 27 .

دور المرأة التواتية في الثورة التحريرية من خلال الشهادات الحية

أ/خديجة حالة

الجامعة الإفريقية احمد دراية أدرار

الملخص:

ساهمت المرأة بإقليم توات في مقاومة الاستعمار الفرنسي بشتى الطرق والوسائل التي أتاحتها لها الظروف، رغم الظلم والقهر والجهل الذي كانت تعانيه فلم تتوانى عن الانضمام إلى صفوف جبهة التحرير؛ حيث عملت كممرضة تعالج المجاهدين، طباخة تحضر المئونة لهم وترسل الرسائل، وسنحاول في هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على دور هذه المرأة في الثورة التحريرية من خلال شهادات مجاهدين.

Résumé:

A la zone de TAOUAT la femme a aussi contribué à la résistance contre la colonisation française de diverses façons et des moyens à sa disposition selon les circonstances, en dépit de l'injustice et de l'oppression et de l'ignorance qui a connu, elle n'a pas hésité à rejoindre les rangs du Front de libération; où elle a travaillé comme infirmière pour les moudjahidines, faire cuire la préparation des rations pour eux et envoyer des messages, et nous allons essayer dans cet article de jeter la lumière sur le rôle des femmes dans cette révolution éditoriale par certificats des moudjahidines.

مقدمة

تميزت الثورة الجزائرية عن بقية الثورات بمشاركة مختلف شرائح المجتمع فيها، مما اكسبها ضفة الشعبية وذلك وفقا لما قاله العربي بن في مقولته الشهيرة "ألقوا بالثورة إلى الشارع سيحتضنها الشعب"، وفي هذه الظروف احتلت المرأة الجزائرية مكانة هامة، حيث كانت المرأة الجزائرية عنصر مهم في الثورة الجزائرية، حيث وقفت مع الرجال جنبا إلى جنب لتحرير هذا الوطن الذي دافعت من اجله حتى اللحظات الأخيرة، كما تحملت مسؤولية الكفاح في المدينة والأرياف، لكسر الحصار الذي كان يشكله المستعمر على أولادها، زوجها، عائلتها، بلدها، دينها وشرفها.

عملت المرأة الجزائرية كممرضة تعالج المجاهدين في الجبال، طباخة تحضر المئونة لهم، ترسل الرسائل وتشارك في المظاهرات والإضرابات، مجاهدة ترفع السلاح وتضع القنابل في أماكن وجود الفرنسيين، فمع الصعوبات التي كان يواجهها المجاهدين أمام الأعداء في مراقبة تحركاتهم، أدى الأمر

إلى تغيير مهام المرأة وتحويل أدوارها الثانوية إلى أدوار أساسية التي كان المجاهدون بأمس الحاجة إليها رغم الصعاب التي واجهتها لكونها امرأة.

إن مشاركة المرأة في ميدان الكفاح المسلح جنبا إلى جنب مع الرجل، غَير المفاهيم الرجعية المتشددة حول خروجها إلى ميدان العمل الجهادي بمختلف أنواعه، فلقيت المرأة كامل الرحيب من قبل جيش التحرير الوطني واضعاً فيها كامل الثقة لكي تتحمل الصعاب مع أخيها الرجل وتنفذ بصدق وإخلاص مبادئ الثورة, وكانت المرأة تُخَاطَبُ بالأخت أو المجاهدة أو المناضلة[1] وهو ما هز مشاعر الشعراء الجزائريين وأسال أقلامهم، وعلى رأسهم شاعر الثورة "مفدي زكريا" في قصيدته " نشيد بنت الجزائر" الذي نظمه بسجن بربروس؛ ومما قال فيه:

أنا بنت الجزائر أنا بنت العرب
يوم نادى المنادي ودعا للكفاح
قمت أحمي بلادي وتركت المزاح
وصدقت جهادي وغدوت الجناح[2]

نضال المرأة بتوات قبل الاستعمار الفرنسي

كانت توات تابعة للمنطقة الثامنة من الولاية الخامسة التاريخية إلى غاية سنة 1957م، غير أن منطقة توات انتمت إلى المنطقة الثالثة من نفس الولاية منذ سنة 1957م، وقد استجاب أهل لتوات لنداء ثورة أول نوفمبر 1954م كغيرهم من الجزائريين رغم تأخر انطلاق شرارة الثورة بتوات الكبرى، والمرأة التواتية شاركت في الثورة التحريرية ضمن مشاركة المرأة الجزائرية عامة، لكن قبل أن نتطرق إلى نضال المرأة بتوات نعرج على نماذج لنساء من المنطقة كان لهم دور كبير في الانتفاض وإعلان التمرد والعصيان ضد الظلم الذي كان كثيرا ما يلحق بهنَّ.

وقد جمعنا هذه الوقائع عن طريق الرواية الشفوي التي هي أساس التاريخ الشفهي الذي لا يزال عديم الحضور في الأوساط العلمية والجامعية والثقافية، وان كان له بعض الحضور الخجول في بعض الجامعات الجزائرية، وفي هذا المجال نذكر قول "روبرت لوي" "RobertLowie": كيف يُمكن للمؤرِّخ أن يخدم نفسَه باعتقادِه أنَّه يحتاج فقط إلى أن يَستجْوِب السكَّان المحلِّيين؛ لكي يتعرَّف على تاريخِهم؟" أو قوله أيضًا: إنَّني لا أستطيع أن أعلِّق أيَّة قيمة تاريخية على الروايات الشفهية، تحت أية ظروف"، ومع هذا فإنَّ تراث الشعوب لا يزال يحمل في طياته الشيء الكثير، مما يمكن معه تلمُّس حقائق، ومعلومات نفيسة لا نَجدها في التَّاريخ المدوَّن، ويجعلنا نحن الباحثين أمام واقع لا

نقْبل معه أقوال روبرت لوي على علاتها، كما يمكن للمرء تذكّر أقوال آخرين يُشيدون بأهميَّة التراث الشفهي، كقول فيدر "A. Feder: إنَّ المأثورات يَجب أن تكون مقبولة؛ لأنَّها تستحق الثقة"[3].

كما إنَّ الذي يظنُّ أنَّ الروايات الشفهيَّة لا تصلح وثائق ومستندات لدراسة التاريخ، قد يتراجع عن رأيه إذا تذكّر أغلب الوثائق المدوَّنة كانت في الأصْل روايات شفهية متناقِلة قبل أن تدون، وعلى هذا الأساس فإنَّ الوثائق الشفهيَّة لا تقلُّ أهمِّيَّة عن الوثائق المدوَّنة، ولا تتفوَّق الأخيرة على الأولى، إلاَّ بكوْنها تخضع لطرُق متعدِّدة للتأكُّد منها، وخلوِّها من التَّزوير، ولكن ليس من الصَّعب أن نضعَ ضوابطَ مُماثِلة لإثبات صحَّة الوثائق الشَّفهية[4].

وبناء عليه فقد تميزت منطقة توات ومن ذلك قبل دخول الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر في القرن الثامن عشر الميلادي ببروز الإقطاعية في شمال منطقة توات والمتمثلة في بعض العائلات المغربية في عهد الدولة السعدية[5] من المغرب الأقصى التي كانت تستولي وتسيطر على منطقة أوقروت ومن ذلك الباشا الصفار عبد العزيز الغازي الذي تصادم مع المدعوة الحاجة مريم من قبيلة الحاج أولاد أمحمد بقصر أُوْفَران؛ حيث كانت مشهورة بالمهارة في الكسب، لكنها تصادمت مع الباشا الذي حاول الحد من توسع نشاطها التجاري، والاستيلاء على أموالها فانتفضت صارخة في وجه الظلم ووقف إلى جانبها كل النساء مع الرجال، وكانت نتيجة ذلك إبادة شبه جماعية للأهالي واعدم للآخرين وصل عدد الضحايا إلى 400 ضحية[6].

نضال المرأة بتوات بعد دخول الاستعمار الفرنسي للجزائر

في سنة 1886م قَدَّم الشيخ بوعمامة ورقة طلب الأمان من فرنسا حينما اشتد عليه الخناق من مختلف الجهات, إلا أن الفرنسيين رفضوا طلبه؛ لكنه بعث رسالة ثانية يطلب فيها الأمان وجاءه الرد بتاريخ 08 ديسمبر1899م في رسالة تقول السلطات العسكرية للعين الصفراء بأننا نقبل طلبك الأمان, إلا أن الشيخ بوعمامة استغل هذه الموافقة المبدئية سياسيا، كما أن الانتصارات العديدة التي أحرزها على العدو خلال سنوات الجهاد صنعت منه رمزا بطوليا جعل السلطات توافق مكرهة على طلبه، إلا أن الشيخ رفض قبولهم لطلبه الأمان ورمى به جانبا وتوغل في أعماق الصحراء ووصل إلى قصر دلدول[7] بتوات[8]، وما إن انتشر خبر وصوله إلى توات توافدت عليه القبائل وأهالي القصور من أولاد عروسة وأولاد إبراهيم وأدغا وتنقل وفد باسم منطقة تيمي[9] لمبايعته كأمير للمنطقة وحاول الشيخ بوعمامة بعث زاوية إصلاحية تحمل سمات الشيخ بوعمامة وقصر دلدول[10], وحاول انجاز مجتمع يشبه مجتمع مدينة الرسول ﷺ الذي آخى بين المهاجرين والأنصار، وسعى الشيخ بوعمامة في هذا المجتمع إلى صون كرامة المرأة والحفاظ عليها فاصدر فتاوى لتنظيم مجتمع مدني تكفلي وراقي لا تهان فيه كرامة أرملة الشهيد؛ بحيث أجاز زواج هذه الأرملة من المجاهدين الباقين على قيد الحياة .

مساهمة المرأة بتوات في نضال الحركة الوطنية

أما في عن دور أهل توات في الحركة الوطنية الجزائرية فتمثل في مؤازرة الحركة الوطنية بالحضور المكثف في المهرجانات الخاصة والعامة التي كانت تقام في المنطقة، التي كانت فرصة مواتية لوصول مختلف المجلات والجرائد ونقل آخر أخبار الحركة، ففي هذه المرحلة كانت ترد على توات بيانات الأحزاب التحررية من جمعية العلماء المسلمين وحركة أنصار الحريات الديمقراطية وبعدها الاتحاد الديمقراطي للبيان والحرية، فكانت الجرائد التي تصدرها هذه الأحزاب تصل تِبَاعاً إلى قياد عروش توات، أمَّا عن مساهمة المرأة في نضال الحركة الوطنية فقد كانت خويرة بيت لمعلم زوجة القائد الرقاني مولاي لحسن الذي كان ضمن فرقة الرماية وحامل سرها والمشرف على المريدين فيها, تقرا على القائد البيانات والجرائد التي كانت ترد عليه بصفة سرية من أحزاب الحركة الوطنية، وكان لا يستطيع أن يجمع كبار القبيلة وذلك خوفا من المراقبة اللصيقة التي كانت تفرضها فرنسا على الزاوية[11]، فربما تولت مهمة إيصال الأخبار إلى النساء الأخريات لتصل أزواجهن، وبعض أهل توات الذين القي القبض عليهم بتهمة التعاون مع أعضاء الحركة الوطنية وذلك بسبب إنشادهم لنشيد "من جبالنا" في وسط ساحة مدينة أدرار[12], وهم قلوم الشيخ واحد أبناء أقوجيل واحد أبناء بن دارة وقادة مولاي واحد أبناء كابويا وتم الزج بهم في سجن المنطقة ثم ترحيلهم إلى سجن سركاجي[13].

ويعتبر المأثور الشعبي المادي والمعنوي احد مقومات المجتمع الجزائري الذي يتميز بخصوصيات مرتبطة بانتماءاته التاريخية والدينية وبأصالته وبثقافته الوطنية التي تتعدد مشاربها، فقد برز مبدعون شعبيون عبروا عن الآم الجماعة وأمالها بواسطة الكلمة المنطوقة المعبرة عن الوجدان الشعبي فبكوا واحتجوا وسخطوا على الأوضاع المزرية التي كان الشعب يعيشها، فالشاعر الشعبي لا يكتفي بالتفرج، بل هو يعطي رأيه موجها ومنبها, رافضا حياة الذل والهوان، داعيا إلى التغيير بالثورة[14]، فهذه السيدة مريم جيني أم الشيخ قلوم تقول فيسجن ابنها الشيخ قلوم ورفقائه:

أبْدَاي قـُولِي بِلاَ إِلَهَ إلا الله
مُحَمَّد شَافَعْ اَمْتُه زِينْ الْخَاتَمة
لاَ يَحْرَمْنَا مَنْ شْفَاعْتَه فَي الْقِيَامَة
هَذِي قَصَّة جْرَاتْ مَنْ الشَّرْقْ للْغَرْبْ
وَتَنَظَّمْ الإسلام وَبْاغَا اِلإِعَانة
وَالله يْعَاوَنْهُمْ عَلى شِينْ الْحَالَة
الله يْعَاوَنْهُمْ يْجَاهْدُوا الْكَفَّارْ
خَرْجُوا لِيهُمْ الزّعَمَا رَفْدُوا الاهَانَة[15]

مشاركة المرأة التواتية في الثورة التحريرية

كانت المرأة الجزائرية ولا زالت قلعة الصمود والمقاومة، عماد الأسرة وخزان الوطنية, حافظت على الانتماء الحضاري للأمة عقيدة وسلوكا, وبَلَّغت ذلك الانتماء للأبناء والأحفاد عن طريق التربية بواسطة الأحاجي والأساطير الملحمية والقصص الشعبية عن بطولات الأجداد للإبقاء على جذوة المقاومة, وفي أحضانها نشا وترعرع الأبطال من الشهداء والمجاهدين أبطال الحرية والمدافعون عن الكرامة والهوية.

فدخلت الميدان بنفسها فساهمت بكل طاقاتها في خدمة الثورة على مختلف مستوياتها وطبقاتها الاجتماعية، وتحملت الصعاب في كل مكان كمحاربة أو مسبلة أو سجينة معتقلة، أو ممرضة تسهر على راحة الجرحى والمصابين، فكانت تطهو الطعام للمجاهد يأكل في بيتها أو يحمل معه مؤونته على ظهره يقتات منها بين الحين والأخر من الأنواع الغير قابلة للتعفن مثل "المعكرة" أو "الطمينة" المصنوعة من دقيق القمح والسمن والتمر، وهي آكلة دسمة تحتوي على مقويات هامة وتستغل لوقت طويل جداً[16].

أما عن مشاركة المرأة التواتية في الثورة التحريرية، فقد ارتبطت بخصوصية المنطقة وبخصوصية المجتمع النسوي في حد ذاته، أما عن خصوصية المنطقة فقد كانت توات ارض مكشوفة منبسطة للغير عكس المناطق الأخرى التي كانت الغابات والجبال والهضاب والسهول مكان للتخفي بعد تنفيذ الهجمات على منشات ومقرات الاستعمار الفرنسي, أما عن خصوصية المجتمع النسوي التَّواتي فقد كان منغلق على نفسه يرفض الاحتكاك والاختلاط بالأجنبي عنه، وكانت المرأة مرتبطة بالعادات والتقاليد والدين، الذي كان يرفض قيامها بأعمال غير المنوطة بها، في حين نجد المرأة الجزائرية ناضلت بكل الطرق والوسائل مجاهدة، فدائية, ممرضة، مسبلة.

فهذه إحدى المجاهدات بمنطقة البيض والتي تقول عن نفسها:" انا فاطمة بنت علي العبادي مولودة بتاريخ 1942 بالبيض، انْخَرَطْتُ في جيش التحرير الوطني سنة 1957، حيث كان لي اتصال بين المساجين والشعب فكنت أوصل لهم الرسائل والنقود والملابس والتبغ، ثم أصْبَحْتُ مكلفة بجمع الأدوية والاشتراكات السنوية سواء من الأهالي والصيدليات، وقُمْتُ بأول عملية فدائية لي وعمري لا يتجاوز 14 سنة؛ فقد أرسلني جيش التحرير لتنفيذ عملية ضد أَحَدِ المتعاملين مع الفرنسيين؛ الذي يعمل في دكان بشارع الستين، وقد طُلِبَ مني أن أَدْفَعَهُ للصعود إلى أعلى حتى أتمكن من رمي القنبلة في المحل فَطَلَبتُ منه أن يصعد السلم ويحضر لي قماش آخر في هذه الأثناء صعد إلى أعلى فَتَمَكَّنْتُ من وَضْعِ القنبلة وخَرجتُ مُسرعة وبعد وقت قليل نسف المحل بكامله، وهذا المتعامل الفرنسي كان يردد جملة " يدي شبعت من العرب لكن قلبي لم يشبع"، وبعد نجاح أول عملية فدائية لفاطمة

بدأت بالتنكر والتنقل من مكان لآخر خشية الوقوع في يد الاستعمار الذي شن حملة اعتقال كبيرة لنساء شبهات بها[17].

لكن هذا لا يعني أن المرأة التواتية لم تشارك في الثورة؛ لكنها شاركت حسب خصوصية المنطقة وحسب مجتمعها، ومن خلال المقابلات التي أجريناها توصلنا إلى أن المرأة بتوات شاركت كمسبلة فقط، وذلك نظرا لطبيعة المناطق الصحراوية ذات الطابع المكشوف وكذا الحالة المعيشية لسكان المنطقة، فانحصرت مساهمة المرأة في تقديم العون للمجاهدين, حيث كان التموين نشاطا استراتيجيا لوجيستيا خلال الثورة, فهو الركيزة التي اعتمدت عليها جبهة التحرير الوطني لمواصلة العمل العسكري؛ إذ لا يمكن أن يستمر العمل العسكري دون توفر اللباس والغذاء والسلاح والدواء، لذلك أُعطيت عناية كبيرة للتموين من قبل قادة الثورة وحاولوا جمع الأموال اللازمة له, لم تكن عملية التموين من بداية الثورة إلى غاية 1955م تخضع للتنظيم, فقد كان جيش التحرير يُمَوَّن من طرف الشعب إذْ كان يتم إطعام المجاهدين في الليل لدى سكان الأرياف, وتحملت المرأة الريفية العبء الكبير في هذا المجال[18].

فكانت المرأة تقوم بصناعة القرب وأحذية الصوف لتمنع رؤية أثار أقدام المجاهدين، ونسج الجلابيب وتقديم بعض المنتجات المحلية كالتمر واللبن[19]، وبعد أن أقام الفرنسيين محتشدات بحاسي صاكة، وصل عدد المجاهدين إلى ما يزيد عن 2000 مجند، وهذا العدد كله يحتاج إلى أثاث نوم وأماكن للاختفاء ومؤنة للتغذية وغسيل, وخياطة ملابس وجلابيب، وكل هذا كان كانت توفره النساء[20]، وبعد أن ادخل الفرنسيين النظام الصحي الخاص بهم إلى توات كانت امرأة بلالية أول من تعلم منهم ثم بدأت تشرح لبقية النسوة طرق العلاج الفرنسية بالبيت، وهذه شهادة المجاهدة مولاي فاطنة التي تقول فيها:" أنها عملت في مراكز الثورة وكُنَّ يأخُذْنَ على عاتقهن مسؤولية مداواة الجرحى من المجاهدين الذين يأتون إليهم ومن بين الممرضات اللواتي عَمِلْنَ معها: خيرة بنت حماني وفاطنة بنت قدة وجمعة بنت مقيمي[21].

كما كانت النساء يقمن بجمع الاشتراكات لجيش التحرير، ويقوم الرجال بشراء القمح والشعير من المتاجر التي يمونها الفرنسيين، وكانوا يطلبون من التجار وصل استلام من كل مشتري في إطار مراقبة السلع، فكان بعض التجار يتعاونون مع المجاهدين بكتب عدة وصولات استلام بأسماء أشخاص كثر وهو في حقيقة الأمر سلم لشخص واحد، وتقوم النسوة بالاجتماع في بيت واحد لطحنه باستعمال الرحى التقليدية باجتماع اثنتين عليها، بينما يقوم الفرنسيين بحملة تفتيش ومداهمة ويتم التحقيق حول مصدر القمح ومصيره، فيجيبه الرجال أن النساء من عاداتهن عند اقتراب موعد زيارات أولياء الصالحين يجمعن الطحين للزيارة، وخلال مواعيد هذه الزيارات التي

كانت على مر السنة تتنقل من قصر إلى آخر يقوم المجاهدين بتسلم المؤنة والاشتراكات التي جمعت[22].

وفي فترة اشتداد الحرب التحريرية ضد الفرنسيين قالت سيدة تدعى "كَبِيرة" بحرقة عن هذا الوطن وأبنائه:

رَانِّي مُوحُولَة مَانْطِيقْ نَصْبَرْ
وَعْلَى أخْبَار هَذَا الْوَطَنْ يَبْطَا عْلِيَّا
وَمُحَا عَبْدَ الله وَالشِّيخْ عَجْلُوا بلْأخْبَارْ[23]

الخاتمة

وفي الأخير نخلص إلى أن المرأة التواتية انتفضت وتمردت على الظلم التي تعرض له الوطن والمجتمع والدين بمختلف الأشكال والوسائل التي أتاحتها لها بيئتها الصحراوية، فأصبحت هذه المرأة التي جاهدت وكافحت وناضلت مثالا يحتذي به، وقدوة للأجيال القادمة.

كما أنَّ هذه المقابلات الشخصية التي كانت أساس هذا البحث توضح أبعادًا نفسية وإنسانية، لا يمكن الوصول إليها من خلال النص المكتوب، فالباحث في هذه الحالة يعيش الأحداث التاريخية التي يدرسها عبر المشاركين الذين سمعها منهم؛ لأنَّ له إمكانيَّة الحوار المباشر معهم، واستيضاحهم حول جوانب كثيرة عن الماضي، كما يستفيد الباحث بطريقةٍ مباشرة من الانطِباع العامِّ الَّذي تركته الأحْداث اللاحقة في نفس الفرد، الذي شارك في صنع الحدث، أو شهِده، أو سمِعه ممَّن شهده، وهذا بدوْرِه يسهم في ضبط الاستنتاجات العلمية التي يتوصَّل إليْها الباحث.

الملاحق

الملحق رقم:1

وثيقة تمثل اشتراكات المجاهدة فاطنة مولاي لسنة 1960 [24].

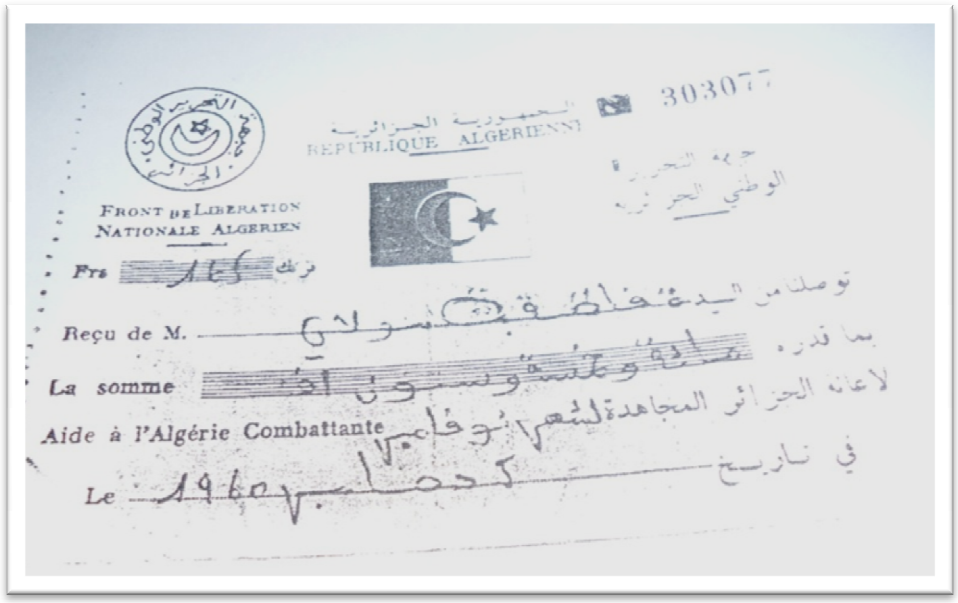

الملحق رقم: 2

وثيقة تمثل اشتراكات المجاهدة مولاي فاطنة لسنة 1962 [25]

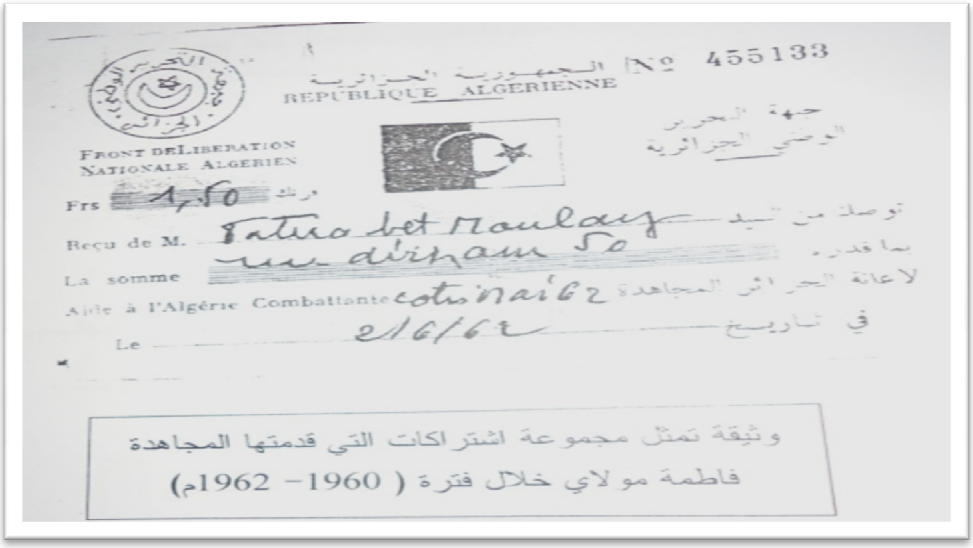

وثيقة تمثل مجموعة اشتراكات التي قدمتها المجاهدة فاطمة مولاي خلال فترة (1960- 1962م)

الماحق رقم: 3.

قائمة بأسماء المجاهدات حسب إحصائيات مديرية المجاهدين لولاية أدرار لسنة 2008 [26].

إحصائيات طبقا لمديرية المجاهدين لولاية أدرار

الاسم و اللقب	اسم الأب	اسم الأم	الحالة
دحو مسعودة	محمد	مباركة	غير متوفية
عيشاوي ربيعة	الشيخ	بطاقة الياسنة	غير متوفية
عيشاوي الزهرة	محمد	فاطنة	غير متوفية
عيشاوي فضيلة	أمحمد	عيشاوي فاطنة	غير متوفية
عيشاوي مباركة	محمد	الداوي فاطنة	غير متوفية
نوى رحمة	بلقا سم	شنتي الزهرة	غير متوفية
بوسعيد فاطنة	بلخير	المير خضرة	غير متوفية
بن شكشك مبروكة	الشيخ	دبة عائشة	غير متوفية
بن بيه براكة	سيدي علي	فاطنة بن بيه	غير متوفية
لئيم الكاملة	احمد	بوديلة أمباركة	غير متوفية
بضياف فاطنة	عبد القادر	الشيخة بنت يعيش	غير متوفية
بكري ميمونة	سليمان	قدوري خيرة	غير متوفية
بلحرمة جمعة	لخضر	يمينة	غير متوفية
بلحرمة حميدة	لخضر	يمينة	غير متوفية
بلحرمة فاطنة	لخضر	ساسية أمباركة	غير متوفرة
بلعقون الزهرة	أمحمد	/	غير متوفرة
النوي فاطمة	بلقا سم	شنتي الزهرة	غير متوفرة
النوي زايعة	بلقاسم	الزهرة بنت أحمد	غير متوفرة
النوي مسعودة	بلقاسم	شنتي الزهرة	غير متوفرة

الملحق رقم: 4

وثيقة تحدد صفة المجاهدات بأدرار وتاريخ التحاقهم ومكان نشاطهم بالثورة التحريرية [27]

لقب واسم المجاهد	تاريخ ومكان الازدياد	الصفة	المكان الإقليم	تاريخ الالتحاق
دحو مسعودة	1926	مناضلة	أدرار	1956
النوي رحمة	تيميمون 1938	مجاهدة	تيميمون	1957
النوي فاطمة	تيميمون 1933	مجاهدة		1957
النوي مسعودة	بعريس	مسبلة	تيميمون	1957
عيشاوي جمعة	فانيس	مسبلة	تنركوك	1957
لئيم الكاملة	بنعنطاس بزاوية الدباغ	مناضلة	تيميمون	بالعرق لكبير 1959
بضياف فاطمة	بتنركوك زاوية الدباغ 1930	مناضلة	تنركوك	1959
عيشاوي ربيعة	فانيس تنركوك	مناضلة	تنركوك	1957
عيشاوي عائشة	بتنركوك 1929	مسبلة	زاوية الدباغ	1956
بلعقون الزهرة	تيميمون	مسبلة	تيميمون	1957
مولاي فاطمة	1931	مجاهدة	اقلي	1958
عبادي فاطمة	1942	فدائية	البيض	1954

ملاحظة : ملاحظات عامة حول النسوة اللواتي كان لهن دور في الثورة

الهوامش:

1 دحمان خديجة : نضال المرأة في إقليمي توات الوسطى وقورارة 1956_1962م، مذكرة لنيل شهادة ليسانس في التاريخ، إشراف: خلوفي بغداد، جامعة العقيد احمد دراية ، أدرار، 2007_2008، ص21.

2 مفدي زكريا: اللهب المقدس، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع, 1983، ص 94.

3 عبدالله بن إبراهيم العسكر: أهمية تدوين التاريخ الشفهي، مجلة الدرعية ، العدد39. 40، 1430هـ/ 2009م، شبكة الألوكة، //www.alukah.net، يوم 29 سبتمبر2014.

4 المرجع نفسه.

5 بدأ السعديون في نشر دعوتهم عن طريق الفرق الصوفية في جنوب المغرب. حاربوا حكام المغرب الوطاسيين ثم قادوا حركة المقاومة ضد الوجود البرتغالي في البلاد، استولوا على مراكش سنة 1525م ثم أغادير (أكادير) سنة 1441م بعد طرد البرتغاليين منها وأخيرا دخلوا فاس سنة 1549م. قام محمد الشيخ (1554م أو1549م-1557م) بالقضاء على الوطاسيين سنة 1554م، للتوسع ينظر: عبد الكريم كريم: المغرب في عهد الدولة السعدية دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية، المغرب، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، 2006.

6 مقابلة شخصية معه في بيته، يوم 23 سبتمبر2014، على الساعة 18: 45.

7 سكن الشيخ بوعمامة بتراب أولاد عبد الصمد بقصر دلدول.

8 جمعية مولاي سليمان بن علي: الزوايا الجزائرية ودورها في مكافحة الاستعمار، أعمال الندوة السنوية السابعة تخليدا لإحياء مآثر الشيخ، مطبعة منضور الوادي، 14ماي 2012م، ص152.

9 هذه المقاطعة هي قلب منطقة توات ومركز مقاطعة أدرار، للتوسع ينظر:فرج محمود فرج: إقليم توات خلال القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977م، ص 142.

10 قلوم المكي: المقابلة السابقة.

11 جمعية مولاي سليمان بن علي: المرجع السابق، ص 68.

12 قرب مسجد عبد القادر الجيلالي اليوم.

13 يكون هذا الحدث في الفترة الممتدة من تاريخ 1943م الى 1954م؛ لان "نشيد من جبالنا" تم إنشاده لأول مرة من قبل القائد الكشاف حسن بالكيرد بعد أسابيع من نزول الحلفاء في شمال إفريقيا في اجتماع بتاريخ 20 ديسمبر 1942م حضره كل من الراحل فرحات عباس عن حزب النواب وعبد الله فيلالي عن حزب الشعب الجزائري والدكتور محمد الشريف سعدان عن النواب والدكتور محمد الصالح بن جلول – عن النواب أيضا .

14 عبد القادر خليفي: محطات من تاريخ الجزائر المجاهدة 1830_1962، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2010، ص275.

15 الحاجة خديجة رمضاني، مقابلة معها في بيتها بتاريخ 27 سبتمبر 2014م، على الساعة 6:35.

16 عبد القادر خليفي: المرجع السابق، ص351.

17 عبادي فاطمة: مقابلة شخصية في بيت ابنتها بأدرار حي 400 مسكن منازل التجربة، 20 سبتمبر2014، على الساعة 18:45.

18 نايري عالية: المرأة الجزائرية ودورها في الثورة التحريرية 1954. 1962م, مذكرة لنيل شهادة ماستر في التاريخ الحديث والمعاصر, إشراف: غزالة بوغانم، الجامعة الإفريقية احمد دراية، أدرار, 2011_2012, ص 79.

19 دحمان خديجة: المرجع السابق، ص 39.

20 قلوم المكي: المقابلة السابقة.

21 نايري عالية: المرجع السابق, ص 76.

22 بلعقون ميلود:مقابلة في شخصية في المنظمة الولائية للمجاهدين، يوم 21 سبتمبر 2014م، على الساعة11:25.

23 الحاجة خديجة رمضاني: المقابلة السابقة.

24 دحمان خديجة: المرجع السابق، ص 51.

25 المرجع نقسه، ص 51.

26 المرجع نفسه, ص57.

27 المرجع نفسه، ص 57.